

قبيلة عربية

من اصل ايطالي

سُغفرت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات السائحين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى القرن الماضي على مصر وبلاد الشرق الأدنى فتقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الايطاليون امثال شربا كودي أنكونا - ولبوناردو فرسكو بالدي - وبيترو ديلا فاله - وجيوفاني بانتايلوني دي يادوا - وايودينو روزوليني دي ييزا وغيرهم الذين قصوا في مؤلفاتهم كثيراً من الاخبار الطريفة عن مصر وآثارها وأهلها من حضر وبدو وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وميائهم. وقد لفت نظري بنسخ خاص ما كتبه عن القبائل العربية الضاربة في صحراء ليبيا ولكن بعد كل ما اطلعت عليه من اخبار هذه القبائل لم يكن ليخطر ببالي ان احدى هذه القبائل الشهيرة بقوتها ومنحة جانبها وهي قبيلة «السناجرة» يجري في عروق ابنائها الدم الايطالي حتى كان الاسبوع الماضي عند ما ذهبت لزيارة صديقي العالم الكبير الاستاذ الدكتور جوثاني كابوثيلا المدرس بجامعة المعرية - في منزله ووجدت في يده مجلداً ضخماً هو مذكرات احدهم لاهل السائحين الايطاليين الذين زاروا مصر في القرن الماضي وهو العالم المهندس روبني بريكتي Robecchi-Brichetti الذي وصل الى مصر في سنة ١٨٨٥ ميلادية وبقي فيها مدة وكان هو اول من قام من الاوربيين برحلة في واحة سيوه والجهات المجاورة لها وكانت رحلته بحجة الاستنصاء وجمع الاعشاب الطبية المفيدة في معالجة المرضى ولكن يظهر انه كان له غرض آخر لم يكن ليبوح به لاحد وهو البحث عن موميات القراعنة المدفونة بالراحة لانه خاطر بحياته بالتزول في احدى متابرها القديمة ونجح في استخراج عدد كبير من الموميات من بطونها وهي احسن ما وجد من هذا النوع وارسلها كلها الى ايطاليا حيث لا تزال موضع اعجاب السائحين والمتفرجين في متحف فلورنسا. وقد اعجب بها وشاد بذكرها الكاتب الايطالي الدائم للصحف ياولو مونتجازا Paolo Montegazza ، ومات بريكتي من عهد قريب بعد ان طبع مذكراته في سنة ١٩٠١ م عن رحلته «الى معبد آمون»

وبعد ان استقر بي المقام بمنزل الدكتور كاهوفيلاد بادرنى بثرالى عما عساي ان اكون سمعت عن قبيلة السناجرة وعن منشأها وموسسها فقلت له لقد سمعت بها وافظن اني سبق ان قرأت شيئاً عنها وكل ما اذكره انها من القبائل العظيمة الشأن التي تقبم في صحراء ليبيا في منطقة واسعة ممتدة على الحدود المصرية الطرابلسية عند ساحل البحر الابيض المتوسط من شرق مدينة طبرق حتى واحتي جنزوب وسيوه جنزوباً وعندئذ قال لي الا تعلم ان هذه القبيلة من اصل ايطالي وانها تنسب الى رجل من مدينة سنا كاسيا Sciacca في جزيرة صقلية اسمه سينكييري ترينا كرزى Sinchieri الذي سماه العرب «سنجر» عند ما اسلم وأقام بينهم ولاسلام هذا الرجل قصة طريفة تقرأها في هذا الفصل وفتح لي المجلد وأشار لي الى فصل عنوانه «قبيلة عربية من اصل ايطالي» فلما قرأته آثرت نشره لطرافتها هو بالحرف الواحد

٩٥ انقطس

انتشر بسرعة انبرق ذلك النبا اثتال بان نصرانياً أو اوروبياً حضر مع القافلة من مدينة الاسكندرية وذلك لاني عقب انتجرف في الصباح الباكر أنسيت نفسي بحيط بي عدد كبير من الناس الذين حضروا لمشاهدتي ولقد كانت هذه أول ليلة امام فيها تحت خيمة حقيقية منذ ان بارحت مدينة الاسكندرية ونمت نوماً هادئاً لتبدأ لاني لم اعد افكر في السهر على امتعتي وأستحس سطرابي انسان علي وذلك لاني زلت ضيفاً على اسرة بدوية من كرام أسر قبيلة السناجرة ولست أدري هل كان سروري بشموري بالراحة والطأة لينة أو هو الهواء الطلق التي أو نسيم البحر القريب هو الذي قوّمى عندي الشهية لتناول الطعام لاني بمجرد ان استيقظت من نومي وتناولت قهوتي شعرت بحاجة شديدة الى الاكل والهبت صحناً كبيراً من الارز وبعض القوقع البحري الذي كنا جمعناه في اثناء الطريق في اليوم السابق

•••

وتخيل لي اني حصلت على معلومات صحيحة طريفة عن قبيلة السناجرة وكل ما عرفته في هذا الشأن وصلني عن طريق شاب بدوي غاية في الادب والعلف اسمه حسن عبد المولى ذكي الفؤاد عذب الحديث يبلغ السابعة والعشرين من عمره تزوج من زمن ليس بالبعيد ولكنه سرمان ما افترقى عن زوجته لعدم تلاؤم طباعهما . وقد تعلم هذا الشاب القراءة والكتابة منذ الحداثة في احدى مدارس السنوسيين في زاوية «رحم الغرب» وكان رفيقي في رحلتي من الاسكندرية الى هنا وقد جذبني طول الحديث بلطفه وادبه الجم حتى صرنا صديقين حميمين وبالاسم لم يكذب بئز من ظهر بعيره حتى دعاني الى خيمته وقدم لي ماء عذباً طياً احضره من بئر قريبة

ذهبت بعد الظهر الى خيام البدو المتقدمين في السن من الرؤساء ذوي الثروة والمكانة للتعليم عليهم ولكي اقدم لهم بعض لقايات التبغ ولكي استقي منهم بعض المعلومات الاكيدة عن قبيلتهم وقد اجمع كلهم على ان السانجرة يكونون شعبة كبيرة من البدو يزيد افرادها على العشرين الف نسمة وكل هؤلاء يرتبطون برابطة القرابة والمصاهرة بالقبائل الاخرى . وتمتاز قبيلة السانجرة باستقلالها المطلق فان رجالها يعيشون مغتربين وسعداء في جبالهم ذات الطرق المتعرجة المتشعبة التي لا يمكن ان يعرف سائرها سواهم ولم يعترفوا باية حكومة ولا باية سلطة حكومية عليهم ولم يخضعوا للتجنيد ولا يدفعون ضريبة ائسا كانت ولا يتساحون في اي قانون يخالف عقيدتهم واثامهم الثابت كالعنود التي يعيشون بينها

• • •

والسانجرة مزارعون مهرة ورعاة اغنام لا مثل لهم في تربية الماشية ولكنهم يعيشون مستقلين بعيدين عن اية مضايقة من اي نوع كانت ولذلك فليست لهم اية علاقات باحد قاطنين برطية اغنامهم ومراشيمهم هنا وهناك ولا يزرعون من الاراضي الا بقدر ما هو ضروري لهم ولحاجاتهم وما اسمع الرجل الذي لا يعرف الحاجة لانه لا يعرف ما هو الحرمان مادام بطنه ممتلئاً منها كان نوع الطعام الذي اكله !

واني لاستطيع ان اقدم سر الجفناء اتقاهم بينهم وبين اولاد علي الذين هم اعظم القبائل في الصحراء الليبية والذين يبلغ عددهم نحو المائة الف نفس دون مبالغه وكلهم شجعان اقرباء محبون للقتال ولكنهم مع هذا خضعوا لسلطان الحكومة المصرية في عهد المنصور له محمد علي باشا عزيمصر وكانوا يقدمون للجيش المصري حتى عهد المرحوم سعيد باشا عدداً كبيراً من الجنود البواسل وهذا الجفناء الموجود بين القبيلتين الصديقتين يرجع الى علاقات اولاد علي بالحكومة

واذا كانت لا اولاد علي السلطة والهيبة على قلب الصحراء فان السانجرة يسيطرون على البحر وسواحلها ولذلك فانهم يتقدمون المثل السائر بينهم الذي يقول « طلعتنا من البحر ودائماً في البحر »

وهم قبل ابتداء فصل الامطار يسرعون في حرق الارض وبنو الاذرة والبقول والعدس والبصل والبطيخ والخيار وعلى الاخص الارز ثم بمجرد سقوط الامطار الاولى يهرعون جميعاً وتذهب كل امرة من امهم للاقامة شهرين او ثلاثة اشهر في الجهة التي يرونها اخصب واكثر ملاءمة لهم من غيرها ثم يعودون فيما بعد الى نصب خيامهم في اماكنها الاولى لكي يستمتعوا بالمحصول الوافر الناتج من الارض المنزوعة

ومنهم من يفضل البقاء او يختار جبالاً او سهولاً او اودية اخرى ولكن كلها على حقرية من البحر الذي هو اصل مبيتهم
ولقد استطلعت ان اصل الى معلومات هامة عن قبيلة السناجرة استقيتها من اوثق المصادر واصدقها فان تاريخ هذه القبيلة يرجع الى ثلاثة قرون مضت عند ما خرج رجل من اهالي ساكا في جزيرة صقلية اسمه سينكييري ريندا كرزبي Sinchièri Trinacrese كان يشتغل بصيد الاسماك في سفينة شرعية مع جماعة من رفاقه الى الساحل الاثريبي لسيد الاسفنج والمرجان ولكن السفينة غرقت بكل من فيها ولم ينج منها سوى هذا الرجل الذي التفت به الاسواج بالقرب من الشاطئ فالتقطه العرب وكان في حالة يرثى لها وأتقذوه من الفرق والملاك

ولقد كان خرفه وهلمه منهم شديداً ولذلك فانه بقي عدة ايام دون ان يتمره بكلمة ولحده بينما كان البدو يكرمون مشواه ويعاملونه احسن معاملة ويحتنون به العناية كلها ولذلك فقد أسرته هذه المعاملة الحسنة التي صامه بها العرب وذلك الاستقبال الودي الذي قابله به فلم يرد مفارقتهم ولم ينأ العودة الى وطنه وأثر ان يقضي بقية صمره بين اولئك البدو الذين ردوا اليه حياته

ولكي يظهر لهم امتنانه واخلاصه ويؤكد لهم اعترافه بحميلهم ترك عقيدته الاصلية واعتنق دين الاسلام ثم تزوج فيما بعد من احدى بناتهم الجميلات وربما كان بقاءه بين العرب واختياره هذه الحياة الجديدة وهذه العقيدة الجديدة راجعاً الى تعلقه وهيامه بتلك القناعة الحسنة التي تزوج منها والتي كانت بدوية رائعة الجمال

ولا يزال العرب من ابناء هذه القبيلة يذكرون اسم سينكييري (سنجر) مؤسس قبيلتهم هذا بكثير من الاحترام والتبجيل وابناء هذه القبيلة اقوياء الابدان حسان الوجوه يكرمون الصيف وشجعان غفورون «

الى هنا انتهى ما كتبه بريكيبي ولعل عند سمو الامير الجليل صر طوسون علم هذه القبيلة ولعله عرف شيئاً عن تاريخها من أثر بحثه وتنقيبه في صحراء ليبيا ذلك البحث الذي ابان عنه في محاضراته النفيسة الاخيرة
طه فوزي